الفصل الثامن

مشابه وانطباعات أندلسية فى شعر المهجر

١ – الآفاق النفسية فى الموشحات المهجرية

لم يتح للانطلاقة الأندلسية الشعرية – وقد كانت أول انطلاقة لتجديد الشعر العربى – أن تبلغ بموشحاتها وتجديدها فى الشعر مرحلة النضج ، فتؤتى شعراً عميقاً خالياً من التلاعب اللفظى ، وكافياً للتعبير عن مختلف النوازع الروحية والإنسانية والاجتماعية ، غير أنها كانت تجربة ناجحة جداً لتسهيل الشعر العربى ، ولتحريره من قيود الوزن والقافية . وكان لا بدّ من انطلاقة ثانية فى سبيل البلوغ بالشعر العربى إلى مرحلة العمق والبساطة ، وإلى جعله فنّاً جميلاً يعبر عن خلجات النفس ونوازع الحياة بغير افتعال أو زخرفة لفظية .

ولقد جاءت هذه الانطلاقة الثانية بعد قرون من تاريخ الانطلاقة الأولى . وكما كان الذين جاءوا بالأولى من العرب الذين عاشوا فى الغرب ، كذلك جاءت الثانية على أيدى العرب الذين هاجروا من بلادهم إلى المهاجر الأميركية ؛ وقد ساعد على خلقها الجو الجديد الذى عاش فيه شعراء المهجر فى هذا القرن العشرين ، والآداب الغربية التى اتصلوا بها وبأهلها ، والحرية الواسعة التى امتلأت بها نفوسهم فراحت تجود بالكثير من الجميل المطرب ، والرقيق المؤثر ، والناعم الممتع .

وجدير بالذكر أن شعراء المهجر – وأسبقهم شعراء الرابطة القلمية – قد استفادوا من انطلاقة الأندلس الأولى فى طرائق النظم ، فقد وجدوا الطريق أمامهم مشقوقة ، وليس عليهم غير أن يطوّروها التطوير الذى يقتضيه الفنّ الرفيع ، ويبلغوا بها المرحلة التى تجعل من الشعر رفيقاً للنفس ، وتصويراً للإحساس .

وكذلك استفاذ المهجريون كثيراً من الآداب الغربية التى عرفوها فى أوجها ؛ فقد كان فيهم المطلعون على الآداب الأميركية والروسية والإنجليزية والفرنسية ، وعلى

كثير من المترجم عن الألمانية والإيطالية . وباطلاعهم هذا استطاعوا أن يجمعوا فى انطلاقتهم الجديدة بين قوة المعانى ، وصدق التعبير ، وبراعة الصور ، وبساطة الصياغة وموسيقيتها . لقد أدركوا أن الشعر فن جميل ، يعبّر عن تجربة حقيقية وانفعال صادق قبل كل شىء ، وليس مجرد صناعة كلامية يتجزأ عليها من يشاء ؛ وأدركوا أن صدق التعبير وبساطته عنصر رئيسى ، كما أن الموسيقى هى أيضاً عنصر رئيسى آخر . وهكذا جاءوا ، إلى جانب الشعر الكلاسيكى التقليدى ، الذى أغنوه بجمال المعانى الجديدة ، بشعر آخر جميل ، غنىّ بالموسيقى والألوان والصور الحية البديعة .

كان الشعر الأندلسى – وأعنى شعر الموشحات – يعوزه العمق ، واتساع الأفق ، وبساطة التعبير غير المفتعل ؛ فجاء الشعر المهجرى الجديد غنيًّا بهذه كلها : فقد جمع إلى ما عرفه الأندلسيون من شعر الطبيعة والحنين والحب ، شعر التأمل ، والشعور الإنسانى الواسع ، والوطنية المتدفقة ، وشعر الأمومة والطفولة ، وغيرها من الأحاسيس الإنسانية الرقيقة ، وأشاعوا فى كل هذه ألواناً من الموسيقى والغنائية الحلوة .

خذ مثلا قصيدة « أخى » لميخائيل نعيمه التى تزخر بجمال العاطفة الإنسانية وقد أوردنا بعضها من قبل .

وخذ قصيدته التأملية « أوراق الخريف » :

تناثَـرى ، تناثَـرى يا بهجةَ النَّظَر
يامرقصَ الشمس ويا أرجوحَةَ القَمر
يـا أرغنَ الليل ويا قيثارةَ السّحَر
يا رمزَ فكرٍ حائرٍ ، ورسم روحٍ ثائر
يا ذكرَ مجدٍ غابر ، قد عافَك الشَّجر
تناثرى ، تناثرى
سيرى ولا تعاتبى ، لا ينفعُ العتـابْ
ولا تلومى الغُصْنَ والرّياحَ والسَّحابْ
فهْىَ إذا خاطبْتها لا تحْسن الجـــوابْ

فنى هذا الشعر استعارات وتشابيه وكنايات ، ولكن ليس فيه تكلّف للحسّ أو افتعال للصور والخيالات ، لا فى مرقص الشمس ، ولا فى أرجوحة القمر ، أو أرغن الليل ، أو قيثارة السحر ، لأن هذه كلها – إلى جانب ما فيها من الغنى الموسيقى – فيها كذلك تصوير غنى بالخيال والجمال والتأمل معاً .

وخذ أيضاً وقفة الشاعر شكر الله الجر عند شلال « تيجوكا » فى البرازيل ، لترى أية تأملات رائعة وصور حية تهتاج فى نفس الشاعر أمام الشلال المتدفق الجميل ، وأية حياة غنية بالجمال يخلعها الشاعر على ذلك الشلال . وهذا مقطع واحد منها :

فديتُك قيثارةً للطبيعـ ـة من مقلتَيْها نسلتُ الوتَرْ
فعطّرْ بدمعك شعرَ الدُّجى وشنّفْ بلحنك أذْنَ القَمَرْ
وَعَسِّلْ بكأسك ثغرَ الورود فترقص نشوانةً فى السَّحَرْ
وخلِّ فؤادىَ يقضى ظمأً لدى بَرْدِ سَلْسالك الدَّافق
فلست تروّى قلوبَ العطاش إلى نَهَلات الهوى الصَادق
ولو سالَ من جفْنك الكوثَرَ

وقد وصل بعض المهجريين – كما وصل بعض الأندلسيين من قبل – إلى جعل التفعيلة الواحدة أساساً للقصيدة ، فتلاعبوا بالتفاعيل كما طاب لهم ؛ ومن ذلك قصيدة « النهاية » لنسيب عريضة ، التى يثور فيها لكرامة أمته وحريتها ، ويعرب عن شدة نقمته على الخنوع والمذلة ، فيقول :

كفِّنوهْ ! وادفنوهْ ! أسكنوهْ – هوّة اللحد العميق
واذهبوا لا تندبوهْ ، فهو شعبٌ – ميتٌ ليس يفيقْ

* * *

ربّ ثارٍ ، وربّ عارٍ ، وربّ نارٍ حرّكتْ قلبَ الجبانْ
كلها فينا ولكن لم تحرّكْ ساكناً إلاّ اللسانْ

وتلاحظ هنا الخروج الكلى على نظام التفاعيل التقليدى ، ولكننا نجد التماسك الموسيقى والتناغم باقيين بكثير من الجمال والتأثير ، لأن القافية تنوّعت تنوّعاً غنائيًّا بارعاً فيها ، مما حفظ للشعر روحه العربية ، وأصالته الموسيقية الفنية

معاً ، ولم يتحول إلى تعابير نثرية جامدة ، أو استعارات وتشابيه مفتعلة افتعالاً .

وهذه أبيات من قصيدة للشاعر فرحات ، عن ديوانه « أحلام الراعى » يصف فيها حلماً جميلا :

فى مسْرَح الشاء الفسيح الخصيبْ بينَ رياض تُنبت العافيهْ
فوقَ بساط سندسىّ قشيبْ تحت سماءٍ رحْبَةٍ صافيَهْ
أطلقت أغنامى – ترعى وتجترّْ
والزّنبقُ النّامى – للفجْر يفترّْ
والنَّرْجس النَّعْسانْ من سهرة الأمسِ
قد أطبق الأجفان – خوفاً من الشمْسِ

وفى مطوّلة « عبقر » لشفيق معلوف كثير من القطع الروائع ، تلاعب فيها الشاعر بالتفاعيل تلاعباً فنيًّا ساحراً . وهى قصيدة أسطورية متعددة الأناشيد ، يختلط فيها الجن والبشر ، والعرّافون والبغايا ، ويخالطها الرعب ، والوصف ، والسحر ، والثورة ؛ فهى شىء يختلف كل الاختلاف عن الموشحات الأندلسية التى اقتصرت على الغزل والوصف والطبيعة والحنين .

وإليك أمثلة من « أغنية الجنية » فى « عبقر » شفيق المعلوف :

هل أنا إلاّ ذرّةٌ من ضياءْ
هل أنا إلاّ زفرةُ الله قَدْ
صعَّدَهَا فوق قباب الجَلَدْ
فلم تزلْ لاهيةً فى الفضاءْ !

* * *

فى العالَم الآخر حيثُ الأرجْ
يجاذبُ الأنفس أهواءَها
متى تلظّتْ شهوةٌ فى المُهَجْ
لم تعدم الأجساد إطفاءَها . .

وإليك نموذجاً آخر من « نشيد البغايا » الثائرات فى الجحيم ، من المطوّلة عينها

نحنُ الفراشات بنات الصبَّاحْ

إن صعَّـد الصّبـاح أنفاســهُ
نــراه قـد مدّ لنا كاسهُ
فنمتطى إليــه متْنَ الرِّياحْ

* * *

أزمنةُ اللهـو انْقَضى نصْفُها
وصدرُنا وســادةٌ للجبــاهْ
فإنْ دنت من الشّفاه الشفاهْ
نهــزّها هـزًّا ونشتفُّهــا

* * *

كان لنــا شعاعُ أحداقنا
فأقبــلَ الليلُ وأطْفــاهُ
والجسَدُ البضُّ تركنــاهُ
تدوسُــه أقــدامُ عشّاقنــا

* * *

مذ خلَعَ اللهُ علينــا المُقَـلْ
زوّدَنا بنظــرة ضائِعــةْ
وشــوة ملحّــةٍ جائعــه
وبشرةٍ هفّـافــةٍ للقُبَــلْ

* * *

فمَنْ لنــا بطـاعة اللهِ
وهـو الذى فى وسَط العاصفهْ
زجّ بنا بالأضلع الرَّاجِفــهْ
والجسَد المستسلم الــواهى ؟ !

وهناك أناشيد أخرى متعددة تلاعب فيها شفيق بالتفاعيل تلاعباً جميلاً منها :

والتجأتْ إلى الوكور الحِسانْ
خــائرة القــوى

تكسّر الأغصانْ
وتستر الكُوى
كيلا تراها العُيونْ
واختلجتْ على الركود الغصُونْ
صفراء تقشعرُّ أوراقها
راويةً حالَ بناتِ الهوى

ومثل هذا كثير فى المطولة ، وليس فى وسعنا الاستمرار فى تقديم النماذج منه .

أما الحنين فقد أبدع القسم الأكبر من شعراء المهجر فى التعبير عنه بقصائدهم : أبدع فيه نسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، وأبو ماضى ، والقروى ، وطعمه ، وفرحات ، وشفيق معلوف ، وعقل الجرّ ، وشكر الله الجرّ ، وكثيرون غيرهم . وقد قدمنا فى فصل سابق كثيراً من النماذج والأمثلة على هذا ، ونضيف الآن أمثلة أخرى من الموشحات الرقيقة التى تزخر بالحنين اللهيف إلى الأهل والوطن .

من ذلك قول نسيب عريضة يحنّ إلى بلده « حمص » :

يا جارةَ العاصى إليك قد انْتَهى أملى ، وأنت المبتغى والمشْتَهى
قلبى يرى فيكِ المحاسنِ كلَّها وعلى هواك يدينُ بالتوْحيد
يا حمصُ ، يا أمَّ الحجارِ السُّودِ !

ومنه أيضاً قول رشيد أيوب فى قصيدة بعنوان « المسافر » من ديوانه « أغانى الدرويش » :

أيا جيرةَ الحىِّ أين الطّريقْ ؟ فإنّى ضللتُ عن المنزلِ
لقد كانَ لى فى حماكمْ رفيقْ من المَهْد فى الزَّمَن الأوّل !
فَغَضُّوا العيون وفيها الدُّموعْ فحارَ فؤادى بتلك العُيونْ
وفى الأدْمعِ !
وقالوا : رأينا شريداً يجولْ بعيداً عن الناس فى معزلِ
يبيتُ الليالى يؤمُّ الطُّلولْ ويبكى على عَهْده الأوّل
فقلنا : دعُوه ، عَراه جنُونْ ومرَّتْ ليالٍ وكرت سنُونْ
ولم يرجعِ

ولست أريد أن أطيل فى حديث الحنين ، بعد أن خصّصت له فصلاً سابقاً . ولكننى سأقدّم فى ما يلى نماذج من الشعر النفسى ، الذى يعالج خطرات النفس ونوازعها الإنسانية ؛ ففيه يخاطب الشاعر نفسه خطاباً باطنيًّا ، فيجوس معها خلال العوالم المنظورة وغير المنظورة ، ويحاورها فى شؤون البشر والطبيعة ، وفى شؤون المجتمع الواقعية ، والروحية ، وفى شؤون الدنيا والآخرة .

هذا اللون من الشعر قد لا يخلو من مسحة من الألم تطغى عليه ، ولكنه قد ينتهى إلى الرجاء والتفاؤل ، وإلى الإيمان بالحب والحق والخير والجمال ، أو قد تظلّ نزعة الألم مسيطرة عليه فى النهاية .

ولعلّ مطولة أبى ماضى الكبرى « لست أدرى » أول ما يتبادر إلى الذهن من هذا اللون الشعرى الذى أدعوه بالشعر النفسى ، والذى اعتاد الأدباء أن يدعوه بالشعر التأملى . وتلك القصيدة طويلة جدًّا ، فلا أرى حاجة إلى أخذ نماذج منها ، بل أكتفى بالإشارة إليها ههنا ، لأننى سأعود فأفرد لها حديثاً آخر خاصًّا ، بين المطوّلات الشعرية المهجرية .

ثم هناك مطوّلة « على بساط الريح » ومطوّلة « شعلة العذاب » لفوزى المعلوف ، وهما أيضاً قصيدتان طويلتان سأفرد لهما حديثاً آخر خاصًّا فيما بعد .

ولعلّ جبران ، ونعيمه ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، وندرة حداد ، أكثر من عالجوا هذا اللون من الشعر النفسى ؛ كما أن الريحانى عالجه فى شعر منثور – أو نثر منفرط على الأصحّ – وهو لهذا لا يدخل فى حديثنا الآن ، لأن الحديث يقتصر على الموشحات وحدها .

من هذه الموشحات قصيدة « يا نفس » لجبران ، منها :

يا نفسُ لولا مطمعى بالخـــلد ما كنتُ أعى
لحناً تغنّيه الدُّهـــورْ
بل كنتُ أنهى حاضرى قسْراً فيغـــدُو ظاهرى
سرًّا تـــواريه القُبُـــورْ

* * *

يا نفسُ ما العيشُ سوى ليلٍ إذا جنّ انْتَهى
بالفجْر ، والفجرُ يدُومْ
وفى ظَما قلبي دليـلْ على وجود السَّلْسبيلْ
فى جرّة الموت الرَّحيمْ

* * *

يا نفس إن قال الجهولْ : الرّوحُ كالجسْمِ تزُولْ
وما يزولُ لا يعودْ !
قولى له : إنَّ الوُرودْ تمضى ولكنَّ البُذورْ
تبقى ؛ وذا كُنْهُ الخلُودْ !

ومن هذا اللون أيضاً قول نسيب عريضة فى قصيدة بعنوان « سيان » :

سيّان إنْ تصغى للنُّصْح أو تغضى
يا نفس ، فالآتى مثْلُ الذى يمضى

* * *

العيشُ إذ يَشْفى كالعيش إذْ يُضنى
إنَّ الذى يُحيي بعض الذى يُفنى

* * *

الطهرُ لا يدنى والعهْرُ لا يُقصى
فالكأسُ إنْ تطفَحْ كالكأس فى النَّقْص

* * *

الجوهرُ السَّامى يبقى بلا رجْسِ
كم مومسٍ تمضى عذراءَ للرَّمْسِ

* * *

وقوله فى قصيدة بعنوان « رباعيات » :

شربتُ كأسى أمامَ نفسى وقلت : يا نفس ما المرامْ ؟
حياةُ شكٍّ وموتُ شكٍّ فلنغمر الشكَّ بالمدامْ
آمالُنا شعشعتْ فغابَتْ كالآل أبقى لنا الأوامْ

لا بأسَ ليس الحياةُ إلا مـرحلةً بدؤهـا ختـامْ

* * *

كم دوحـةٍ لا يبينُ منها إلاّ قليـلٌ من الكثيرْ
فـروعُها والغصونُ جـزء بـدا ، ولكنـه حقـيرْ
وتحت سطْحِ الثرى أصول محجوبةٌ ، حجْمُها وفيرْ
فيهـا حياةُ الغصون لكنْ لدى الوَرى شأنها صغيرْ

* * *

لو حدّقَ المرءُ فى البَرايا لشامَ ما لا ترى العُيونْ
مـا حولَـنا عـالمٌ خفىّ تدركهُ الرّوحُ فى السّكونْ
كم مبصرٍ لا يَرى ، وأعمى يرَى ويدرى الذى يكُونْ
يا ويحَ مَنْ لا يـرون شيئاً إلاّ إذا فتّحوا العُيونْ !

* * *

هذه النماذج والكثير جداً من مثلها مما تزخر به دواوين الشعر المهجرى ، يضاف إليها ما أبدعه شعراء المهجر من شعر الأمومة والطفولة ، والشعر القصصى والأسطورى ، والاجتماعى ، ترينا إلى أىّ مدى استطاع المهجريون فى انطلاقتهم أن يمنحوا الشعر الجمال والعمق والاتساع والغنى ، مما كان يعـوز انطلاقة الأندلس لتأتى انطلاقة غنيّة راسخة الجذور فى قلب الحياة .

٢ – ذكريات الأندلس
وإثارتها للأحاسيس القومية

لم يقتصر تأثير الأندلس فى المهجريين ، أو يقف بهم ، عند حدّ استكمال الوثبة التحريرية للشعر العربى التى بدأها الأندلسيون ، فهناك تأثيرات أخرى من استيحاء أمجاد العرب فى ذلك الفردوس الذى أضاعه العرب ، فبكوه مثل النساء لأنهم لم يعرفوا كيف يحافظون عليه مثل الرجال . . .

وأكثر ما نجد ذلك التأثير الاستيحائى فى أدب المهجر الجنوبى ؛ والسبب فى ذلك هو أن شعراء المهجر الجنوبى يعيشون بين أقوام ذوى صلة وثيقة بالإسبان – أهل الأندلس – وهذه الصلة وحدها كافية للتأثير العميق المباشر. يضاف إلى ذلك أنهم قد اتصلوا ببعض شعراء الإسبان الذين كانوا يذكّرونهم بعهود الأندلس الغابرة ، كالشاعر الإسبانى الشهير فرنسيسكو فيلاسبازا ، الذى عاش مدة من عمره فى البرازيل ، واتصل به عدد من شعراء العرب هناك ، ومن بينهم فوزى المعلوف ؛ وهو الذى وضع مقدمة المطولة الشعرية المشهورة « على بساط الريح » لفوزى المعلوف ؛ وترجم المطولة شعراً إلى اللغة الإسبانية . ويروى أنه كان يحب العرب كثيراً ، وقد رثى أيامهم فى الأندلس بقصائد جميلة ، وترجم له فوزى المعلوف قصيدة من هذه المراثى الإسبانية لمجد العرب ، وهى بعنوان « غرناطة » هذا بعضها :

غرناطة ، أواه غـــرناطةُ لم يبقَ شيءٌ لك من صولَتِكْ
هل نهرك الجارى سوى أدْمعٍ تجرى على ما دالَ من دولتكْ
والنسمة الغـاديةُ الرَّائحـــهْ هـل هى إلاَّ زفرةٌ نائحهْ
ما عدتِ فى النهْر كسلطـانةٍ جبهتهـــا فى مائـــه ساطعهْ
للقبة الحمـــراءِ فى تاجهـا وهـج ، وللمئذنة اللاَّمعهْ
آه على أمجادك الضَّائعـهْ
شيَّعتُهـــا بالنَّظْـــرة الدَّامعـهْ

* * *

لله حمـــراؤك تحسو الأسى وحيدةً فى الرَّوْضة الخاليـهْ
لم يبْقَ لا زهـوةُ ندمانهـــا ولا صدى أعيـادهـــا الماضيهْ
ولم يعُـــدْ للحب فيهـــا أنينْ
ينقـلهُ العودُ عـن العاشقينْ
بينـــا يجيل البـــدرُ ألحاظَـــهُ باهتـةً فى المـرمـــر اللاَّمع
بين أريـــجِ الزَّهَـــر المنتشى وبين شـــدو البلبـــل الساجع .

وقصرهـــا الخـــاوى بأرجائه
كم غمَـرَ الليـل بضـوضـائهِ
إذِ الجـوارى خاطراتٌ عـلى سجّـــاده جـاريةً جاريه
أروع ما فى الشرق من رقْصةٍ تنسجُهُ أقـدامُهـا العـاريهْ

* * *

على أنه قد يكون هناك سبب ثالث يذكر شعراء المهجر بالأندلس ، ويجعل لها فى شعرهم ونثرهم مكاناً بارزاً ، ذلك هو شعورهم بأن هنالك شبهاً بينهم وبين العرب القدامى الذين انطلقوا من مشرقهم البعيد إلى بلاد الأندلس القاصية ، واستطاعوا أن يقيموا هنالك دولة للأدب العربى الرفيع ، وأن يجدّدوا فى ضروب الشعر تجديداً رائعاً ؛ فهم كذلك مغتربون فى أقاصى الأرض ، ولكنهم استطاعوا أن يقيموا للأدب العربى مملكة عظيمة ، وأن يدهشوا المشرق العربى بأدبهم الجديد الباهر فى بداياته ، كما أدهشه من قبل أسلافهم العرب الأندلسيون بموشحاتهم الجميلة .

وما دمنا قد ذكرنا فوزى المعلوف فى ما تقدم ، فلا بدّ أن نذكر أن أثر الأندلس لم يظهر فى شعره فحسب ، بل ظهر كذلك فى نثره ؛ فقد وضع رواية عنوانها « ابن حامد ، أو سقوط غرناطة » ، وهى مسرحية ذات خمسة فصول . وقد مثلت على المسارح فى البرازيل ، ثم نشرتها مجلة « العصبة » بدلاً من عددها العاشر من سنتها الثانية عشرة ، وصدرت ، فى كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٥٢ .

وللشاعر إلياس فرحات موشح جميل بعنوان « تحية الأندلس » يستهله بقوله :

أيقظتْ ذكراك آمالاً جسامَا كنَّ فى أرجُوحة الصّدر نيامَا
وشَجانا بلبلٌ حولَك حـامَا فسقَانا من أغانيــه مُـدامَا
قد رأى منك دلالاً واحتشامَا فانْثَنى حـيرانَ صَبًّا مستهامَا
ليسَ يـدرى كيفَ يقـريك السلامَا

ويختم ذلك الموشح الجميل بقوله :

يا ابْنَة الزّهْراء يا أنـدلسيَّهْ إنَّ من أجـدادك العُرب بقيهْ

لم تزلْ شامخةَ الرّأس أبيّــهْ　　　لم تفــرّقْهــا مســاع أجنبيّــهْ
لم تُفَتِّقْهــا دواعٍ مذهبيّــهْ　　　كلما مرّتْ بها ريحُ الخــزامى
أرسلتْ معْهـا لأهليك السلامَا

* * *

يا ابْنةَ الأحـرار يا أخْتَ الكرامِ　　　وعروس الصِّيد من عتْرة سامِ
ومُنَى كلّ فــؤادٍ مستهـام　　　اذكـرى بالخير أبناءَ الشّآم
واذكـرى صقْرَ قريشٍ باحترام　　　وارفعى عن عُنُق الريف الحُساما
ليسَ من يستعبدُ الحرَّ هُماماً

وهذه القصيدة استوحاها الشاعر من محاضرة ألقاها الشاعر الإسبانى فرانسيسكو فيلاسبازا فى مدينة سان باولو فى البرازيل ، منوّهاً فيها بأمجاد العرب فى الأندلس ، ومباهياً بأنه هو نفسه من أصل عربى أندلسى ؛ فهاج ذلك شاعرية فرحات والقروى ، فنظم كل منهما موشحاً جميلاً فى ذكرى الأندلس . وكان الموشحان على نسق واحد ، حتّى لتكاد تتلاقى فيهما بعض التعابير والأبيات عينها . وكانت قصيدة الشاعر القروى بعنوان « تحية الأندلس » كذلك . وقد استهلها بقوله :

خبّرينــا كيف نقريك السلامَا　　　طيِّبَ النَّشْر كأنفاس الخزامى
والشذا المُحْيِي بسوريّا العِظاما　　　غادرَ الشامَ وبيروتَ وهـامَا
فى بلادٍ حـرّةٍ لم تحْن هَـاما　　　وأنوف لم يقبِّلْنَ الرّغــامَا
خـبّرينا كيف نقريك السلامَا

وفيها يقول :

يا ابْنةَ الزّهْـراء يا أندلسيّهْ　　　لم تـزلْ فيك من المجد بقيّهْ
لمعتْ فيها السيوفُ المشرفيّهْ　　　ضاربات بزنـودٍ عربيّــهْ
فعـلى مثلك لا تُلْقَى التحيّهْ　　　بأكفّ لم يجرّدْنَ حُسامَا
خـبّرينا كيفَ نقريك السَّلاما

ثم يختمها قائلاً :

وإذا بيروتُ ، أمُّ النور ، ولّى　　　عن سماها أثْقَلُ الرّايات ظلاًّ

وإذا السيف من الصّحراء سُلاَّ نافضاً عن أرْبُع الفيحاء ذُلاَّ
وإذا لبنـــان بالأمْـر اسْتقلاَّ فلبسنا العـــزَّ أو متْنا كراما
عنـــد هـــذا سوف نهديك السّلاما

وللشاعر إلياس طعمة « أبي الفضل الوليد » قصائد متعددة مستوحاة من ذكريات الأندلس . نذكر منها قصيدتيه « فى حمراء غرناطة » و « إلى فتاة أندلسية » من ديوانه « الأنفاس الملهبة » . يقول فى الأولى :

أمعاهدَ الحمـــراء هل تدْرينا ماذا لقيتِ من العدى ولقينا
نزعوك منّـا بعد تكسير الظُّبى فبتَعْس من فقدوك تفتخرينا
هذا جلالُك عن جمالك مخبرٌ فلأنت رسْمُ المجد من ماضينا

ويقول فى الثانية :

هـــذا المحيَّا خليطُ اللون والنَّسَب فيه تلاقَى دمُ الإسْبان والعَـــرَبِ
فى الحرْب والحب قد كان امتزاجُهما فأنْزَلَ الحسْنُ منه آيةَ العجَبِ
على جبينـــك تـاريخٌ صحائفُـهُ مكتوبةٌ بحروف النور والذّهَبِ
إذا الفراسةُ صحّتْ قلتُ مفتخـراً يا بنْتَ عمّى حباك الحسْنُ خيرَ أبِ
فحدّثيني عن الأطـــلال دارســـة فنى حديثك شيءٌ ليس فى الكتبِ
يا قرطبيَّةُ ، هل شاقَتْك قـــرطبةٌ مثلى فهزتْك نوباتٌ من الطَّربِ
ليس الجمالُ الذى أشتاق بهجتَـــهُ من حمرة الروم ، بل من سمرة العرَبِ

ولم يكتف شعراؤنا الأندلسيون الجدد – المهجريون – بأن استوحوا أمجاد الأندلس وأيامه الجميلة فى شعرهم ونثرهم ، فقد دعيت رابطة أدباء المهجر الجنوبى الكبرى فى البرازيل باسم « العصبة الأندلسية » ، وإليها ينتسب القسم الأكبر والأكثر شهرة هناك من الأدباء والشعراء ، من أمثال القروى ، وأخيه المدنى ، وفرحات ، وشفيق المعلوف ، وأخيه رياض ، وخالهما ميشال معلوف ، وعقل الجرّ ، وشكر الله الجرّ ، والمغربى ، ونصر سمعان ، وحسنى غراب ، ويوسف البعينى ، ونظير زيتون ، وغيرهم . ومن بين هؤلاء أديب كان يكتب فى « العصبة » دائماً بتوقيع « أندلسى » ولست أعرف من هو ذلك الأديب . . .

والشاعر شكر الله الجرّ أصدر مجلة هناك فدعاها « الأندلس الجديدة » .

وحينما ألقى الشاعر الإسبانى فيلاسبازا محاضرته فى سان باولو عن الأندلس وتبارى أدباء العرب هناك فى تكريمه ، ومن بينهم الشاعر القروى وفرحات ، ألقى كذلك شكر الله الجرّ قصيدة بعنوان « الأندلسية » ، يقول فيها :

أسرّحُ فى محاسنهـا العُيونا ... وأذرى فى معالمهـا الشؤونا
بلادٌ كيف جالَ الطرْفُ فيها ... يرى أثَـرَ الجدود الغابرينـا
تكادُ قبـورُهم مما حوته ... يقدسُهـا الورَى حجَراً وطينا
كسَوْا جنباتها جنـداً وخيْـلاً ... كما ملأوا شواطئَهـا سفينـا
فسلْ عنهمْ طليطلةً حديثـاً ... ودونك عندهـا الخبَرَ اليقينـا
وسل غرناطـةً فى أىّ تُـرْب ... ثوى مَنْ روّعوا الدنيا مِئينـا(١)
تَقلّصَ ظلهم عنهـا وكانتْ ... أعـزَّ بمَـنْ حوت منهم عَرينـا
وسَلْ كم معهد للعلْم شـادُوا ... بقرطبـة ، فكانوا السَّابقينـا
فحسبُكِ أرضَ أندلسٍ فخـاراً ... بأنك كنت مهْـدَ الخالدينـا
ترعرعَ فى حمـاك المجدُ طفْـلاً ... وشبَّ على ثَـراك النَّابغُونـا

وله قصيدة أخرى عنوانها « على شواطئ الأندلس » يقول فيها :

لكَ الله فى الغرْب مـن شاطئٍ ... إلى الشرْق فى مجْـده يرجعُ
تمـرُّ فتخشعُ فيـك النفـوسُ ... ومن ذا لماضيكَ لا يخْشَعُ

ويقول أيضـاً :

وقفتُ بشاطيك أذرى الدّمـوع ... وأندبُ فى الأمس ما ضيّعـوا
فأيـن معـاهدك النـيراتُ ... وأيـن مآذنك اللمّـعُ ؟
وأين قصـور كساها الغنـاءُ ... وشاحاً من الخلْـد لا يُقشعُ
وأيـن جداولُك الجـاريات ... وأيـن خمائلُك الضُـوَّعُ
ملـوكُ القريـض وأربابُـهُ ... تغـمَّدهم تُرْبُك الممـرعُ

ولشفيق المعلوف قصيدة بعنوان « غرناطة » يقول فيها :

لا عينَ ، غرناطـة ، ولا أثَـرُ ... دُلْتِ فهيهاتَ تنفعُ الذكَـرُ
أهكذا النسْر بعـد رفْعَتـه ... إلى حضيض الهوان ينحـدرُ ؟ !

(١) مئات من السنين .

يا سائلَ البـدْو عن حضارتهـم يُنْبيكَ عنها الصوّان والحَجَـرُ
فاستنْبِ إشبيليـــا وقرطبـــةً تُجبْكَ تلك المعاهدُ الزُّهُـرُ
لهمْ حديثٌ لـــدى طليطلـة وعنـــد غرناطةٍ لهم خـــبَرُ

* * *

أما المهجر الشمالى فلا نعرف أحداً من أدبائه استلهم الأندلس فى شىء من أدبه ، أو استوحى منها ذكريات أو أمجاداً قومية ، سوى أمين الريحانى . وهذا بالنسبة إلى الريحانى طبيعى جداً ، فهو أديب وقف قلمه وفكره وحياته على أمته العربية ؛ والأندلس جزء عظيم الأهمية من تاريخ الأمة العربية ، وشحنة كبيرة من أمجادها وبطولاتها وحضارتها وعلومها . ولقد كان يكون من الغريب لو لم يلتفت إليها الريحانى ، بل لعله يكون أغرب لو أنه لم يزر الأندلس بنفسه – لا بخياله وحده – ويقف على آيات الفن العربى الرائعة فى بقايا قصورها ومعابدها .

لقد زار الريحانى الأندلس إذن ، وكتب عن زيارته تلك مقالاً طويلاً بعنوان « نور الأندلس » ، نجده فى مستهل الجزء الثالث من « الريحانيات » فى طبعتها الثانية عام ١٩٢٣ – وفى الصفحة ٢٢٦ من الجزء الأول ، فى طبعتها الثالثة عام ١٩٥٦ ، وقد جاء ذلك المقال فى ٢٢ صفحة من طبعة الريحانيات الثانية . ولئن كان الريحانى تغلب عليه روح الرّحالة المؤرخ ، فلقد كان فى هذا المقال رحالة ، وشاعراً خيالياً ، ومصوّراً عظيم البراعة . وقد استهلّ مقاله بقوله :

« من حسنات الحياة زيارة الأندلس ، ومن الكفّارات عن ذنوب الناطق بالضاد الحج إلى الحمراء التى قال فيها الشاعر :

تمدّ لها الجوزاءُ كفَّ مصافـــح ويدنو لها بدرُ السماء مناجيا

ومن حظى أنى كنت من الحاجين . زرت تلك البلاد المباركة فى موسم ظننته أولاً موسم الأعياد ، ولكنى بعد أن طفت فى شوارع سيفيليا « إشبيلية العرب » ، وتنشقت هواء برّها ، وشممت نفح طيبها ، وسمعت حمارها وفلاحها وشريفها يتغنون بـ « أندليثيا » – وهم يلفظون السين ثاء – ويناجون ربة السرور ليل نهار ، بعيونهم وبأرواحهم ساعة الأشغال ، وبالعود والقانون ساعة اللهو والطرب ، علمت أن عام تلك البلاد موسم ، ومواسمها أعوام يتلو الواحد الآخر دون انقطاع .

فالأندلس – بلاد الرقص والقمار ، وبلاد الكنائس أيضاً وحرب الثيران – إنما هي قطب السرور في فلك الأسبان ، بل هي في نظر الأندلسيين بلاد الله وحدها ، لا شريك لها في ذا الشرف الفريد . وقد قال أحد ظرفائها : « خلق الله العالم في ستة أيام ، ثم جلس في اليوم السابع في الأندلس ليستريح » » .

ثم يمضي في الحديث ، حتى يستبدّ به الخيال الشعرى الجميل فيقول :

« والذى يخيل إلىّ أن الله بعد أن جلس في الأندلس يستريح باركها ثم هجرها . وأبناء البلاد حتى الآن يعيّدون كتلاميذ المدرسة عند تغيّب المعلم . وما أجمل ما فاح من تلك البركة ، وما تجلّى ، وما تجسد في تلك البقعة من الأرض . ففي سمائها وفي شمسها عرض للعيد وهّاج ، وفي بساتينها وفي مروجها حلة للعيد لا تبلى ، وفي هوائها جرثومة سحر تدخل قلبك فتشرع ترقص فيه حتى تستهويك وتستغويك ، فتخف الروح منك إلى نقطة الدائرة في مدينة الطرب والسرور ، بل تستوقفك بهجاً دهشاً نشوان ، فتسترسل مثل ابن البلاد إلى كل من رقص وكل من شدا ، وتسير معهم من عيد صغير إلى عيد كبير إلى عيد أكبر ، إلى عيد الأعياد في الربيع . . . »

ويمضي في الحديث أيضاً إلى أن يقول في وصف طلول المجد العربي الدارس :

« طلول كانت بالأمس معاهد وقصوراً ؛ وقصور كانت يوماً دائرة المجد وقطب الحبور . في قناطرها وقبابها وأبوابها صناعة دقيقة نادرة ، وفي كل رسم من رسومها آية جمال تدهش حتى اليوم أرباب الفن ، وفي كل بيت من الشعر على جدرانها درّة من المعنى ، أو زهرة من التقوى منقوشة في بلاط منقطع النظير لوناً وتذهيباً .

وصنائـــعُ الزِلّيـج في حيطانها   والأرض مثلُ بدائع الديبـــاج

« هذى آثار العرب وقد أمست عروشاً لربة النسيان ، ومدفناً لمجد الزمان ، وظلالاً تجلب الأحزان ، وعبرة بليغة للإنسان ، وهي ، وإن كانت كذلك ، بهجة للناظرين ، ومصدر وحي لأرباب الفنون والمتفننين . ولكن الذكرى –

وياالله من ذكرى تقبض على النفس فتجعلها كالجماد ! لله من آثار تبتهج لمرآها العين فيذوب لمعناها الفؤاد ! لله من بلد تغنت بمكارمه كل بلاد !

« لله عزّك يا ابن أمية ، ومجدك يا ابن عباد !

« أى عبد الرحمن والمنصور والمعتمد ! من شادوا معاهد العلم والدين !

« لقد طالما اهتزت النفس لذكر مآثركم ، وطالما وقفت العين شغفاً عند أسمائكم فى التاريخ ، ولقد تاقت النفس منى والعين إلى مشاهدة ما تبقّى من تلك الآثار المجيدة ؛ وها قد استجيبت طِلبتى وتحقق أكبر آمالى ، فقد وطئت أرضاً عطرتها شمائل العرب ، وجلت بلاداً عمرتها همم العرب ، ووقفت أمام عروش هدمتها عصبية العرب . . . »

هكذا يتحدث الريحانى عن أندلس العرب ، ويستوحى تاريخهم وأمجادهم من عمرانها ومن أطلالها ، ويمجد أيامهم وحضارتهم وعلومهم وفنونهم بروح العربى المخلص المؤمن .

* * *

وأكتفى بهذا المقدار من الأمثلة على تأثير الأندلس فى أدب المهجر من حيث إلهاب العاطفة القومية ، وإثارة الإحساس الوطنى .

غير أننى أودّ ههنا أن أضيف إلى الأسباب التى تقدّم ذكرها لهذا التأثير الأندلسى سبباً آخر ، وهو أن من دواعى الوطنية أن يعتز العربى بماضيه المجيد ، وأن يذكّر به قومه ويحثهم على بناء مجد مثله .

وأدباء المهجر وشعراؤه عرب أحرار ، يحبون قومهم ، ويحنون إلى أمجادهم ، ويودّون لبلادهم العربية المجد والرفعة ، فلا عجب فى أن نراهم يستوحون أمجاد الماضى لكى يبنى قومهم أمجاداً جديدة مثلها فى الحاضر .

٣ - الزجل المهجرى

كما ساير الزجل فى الأندلس نهضة الموشحات هناك ، كذلك رافق الزجل الشعر والنثر فى المهاجر الأميركية ؛ وبرز بين المهجريين عدد من الزجالين المبدعين ، الذين يتفوق زجلهم فى جماله ورقته على شعر الكثيرين من شعراء الفصحى .

والصحف المهجرية تعنى عناية غير قليلة بالزجل ، إلى جانب عنايتها بالشعر والنثر ، وتنشره إلى جانب القصائد الفصحى لكبار الشعراء .

ولم يقتصر الأمر على هذا وحده ، فقد عرفنا فى البرازيل مجلتين كبريين للزجل ، لا تقلان عن مجلتى « الشرق » و« المراحل » الأدبيتين أناقة وفخامة . والمجلتان الزجليتان هما « روضة الزجل » وكان يصدرها سليم لطف الله ، المعروف باسم « أمير الزجل المهجرى » ، و« الروضة » وكانت تصدرها عصبة الشعر القومى فى البرازيل . وفى كل عدد من هاتين المجلتين كنا نجد كثيراً من الأزجال المختلفة الألوان والمواضيع .

ويشترك عدد من الشعراء المعروفين هناك مع الزجالين فى أنهم ينظمون الشعر الفصيح والأزجال العامية ، ويجيدون هذين اللونين إجادة كثيرة . ومن هؤلاء أخص بالذكر يوسف أسعد غانم « عضو العصبة الأندلسية » وسليم نادر ، ونعمة قازان ؛ كما أشير إلى أن الشاعر القومى إلياس فرحات كان فى بدء الأمر زجالاً ، ثم هجر الزجل إلى الشعر الفصيح ، فنال فيه مكانة عالية بين أكبر شعراء العرب فى العصر الحاضر .

وقد أورد فرحات فى مذكراته - التى نشرتها وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى دمشق فى كتاب بعنوان (قال الراوى) عام ١٩٦٥ ؛ وكانت هذه المذكرات قد نشرت أولاً فى مجلة (القلم الجديد) لصاحب هذا الكتاب عام ١٩٥٢ / ١٩٥٣ ثم فى مجلة (الرائد العربى) فى حماة / سوريا عام ١٩٥٧ - عدداً من أزجاله القديمة ، وتحدث طويلا عن منافساته لكبار الزجالين فى كفر شيما والقرى

القريبة منها قبل هجرته إلى البرازيل . ومن شاء أن يطلع على هذا الجانب من حياة فرحات وشاعريته ، فليراجع كتابى « إلياس فرحات شاعر القومية العربية » المطبوع فى الأردن عام ١٩٥٦ ، ففيه الكفاية ، ولا حاجة إلى تكرار ذلك ههنا .

أما يوسف أسعد غانم ، الشاعر الثائر ، فقد أصدر عام ١٩٥٣ ديواناً زجلياً لطيف الحجم والشعر ، دعاه « البرج الأخضر » ، جمع فيه عدداً كبيراً من قصائده الزجلية الرقيقة ، وأغلبها فى الحنين ، وفى الغزل .

وقبل أن أمضى فى الحديث أود أن أعترف بأننى لم أول الزجل المهجرى كثيراً مـــن اهتمامى خلال دراستى الطويلة لأدب المهجر ، ولذلك لن أتمكن من الإحاطة بجميع المبرزين فى هذا الميدان ، ولا بمختلف نواحيه . وإنما هى إلمامة لابدّ منها لاستيفاء البحث التاريخى قبل كل شىء . ولهذا أعتذر عما سيكون فى بحثى من التقصير ، وعما قد أقع فيه من عدم الدقة ، ومن الاقتصار على عدد محدود من الزجالين الذين وقعت على أسمائهم وأزجالهم فى القليل من أعداد « الروضة » و« روضة الزجل » التى وصلت إلى يدى ، وفى أعداد مختلفة من مجلات « الشرق » و« المراحل » و« العصبة » ، ومن جرائد المهجر اليومية أو الأسبوعية .

والزجالون الذين قرأت لهم وما يزال لدىّ أشياء من أزجالهم ، إلى جانب سليم لطف الله ، ويوسف أسعد غانم ، وسليم نادر ، هم : طانيوس كحلاوى ، وجورج ناصيف فاضل ، وطانيوس بعقلينى ، وزغلول الدامور ، وفرخ النسر ؛ وكلهم فى المهجر الجنوبى . أما (فرخ النسر) فهو الشاعر نعمة قازان ، كما أكّدت لى ذلك السيدة مريانا دعبول فاخورى فى رسالة منها بتاريخ ١٩٧٣/٧/١٢ ؛ ومريانا دعبول هى صاحبة مجلة (المراحل) التى تصدر فى البرازيل . وكذلك وقعتُ فى (المراحل) على قصائد كانت تحمل اسم الشاعر الحقيقى (نعمة قازان) واسمه المستعار للزجل (فرخ النسر) .

وأما « زغلول الدامور » فلست أعرف اسمه الحقيقى ، فهذا اسم مستعار له ؛ غير أننى وقعت له على أزجال رقيقة فى بعض الصحف المحفوظة لدىّ .

وأما المهجر الشمالى فلم أحتفظ لدىّ بشىء من قصائد زجّاليه التى كانت تصل إلىّ فى الجرائد اليومية ، كالسمير ، والسائح ، والبيان ، ولكنى لم أتمكن من الاحتفاظ بها للرجوع إليها فى معرفة أسماء الزجالين ، ونماذج من أزجالهم . وأذكر منهم ملحم حاوى ، وسعيد جبرين فقط . غير أننى سأقتصر على من ذكرت من زجالى المهجر الجنوبى وحدهم ، ففى زجلهم غنية وكفاية لإعطاء صورة واضحة عن الزجل فى المهجر .

وعلى كل حال ليس فى زجل المهجر ما يفرقه عن الزجل اللبنانى المألوف إلا فى ناحية واحدة هى « الحنين » ؛ فقد اكتوى الزجالون ، كما اكتوى أدباء المهجر عامة ، بنار الحنين إلى وطنهم وإلى أحبائهم فيه ، ففاضت نفوسهم بقصائد حلوة فى التعبير عن لهفتهم ولوعتهم ، وفى تصوير شقائهم فى الغربة .

ولست أعرف لهؤلاء الزجالين دواوين زجلية مطبوعة ، غير ديوان « البرج الأخضر » للأديب الشاعر يوسف أسعد غانم . ومن الإنصاف أن أذكر ههنا أن يوسف غانم كان أديباً موهوباً فى الشعر الفصيح وفى النثر الفصيح ، وكذلك فى الزجل العامى . والذين رافقوا مجلة « العصبة » ومجلة « الشرق » وجريدة « العلم العربى » وغيرها من صحف المهجر ، يعرفون شعره ونثره ، ويقدرون موهبته الأدبية الجميلة .

وشعر يوسف غانم – الفصيح منه والعامى – مقطوعات قصيرة ، تحمل الإحساس أو الخاطرة أو الفكرة بإيجاز حلو ، فلا يسهب ولا يطيل النَّفَس ، بل يقتصر على أبيات قليلة معبرة .

وفى ما يلى شىء من قصائده العامية فى ديوانه « البرج الأخضر » ، وأغلبها فى الحنين إلى الأهل والوطن . يقول فى قصيدة بعنوان « عالشط » :

عالشَّطّ صار لى سنين ... ناطر البابور حتى يطلّ
محروم ، دايب شوق ... عالْوطنْ تافلّ
غباشة تِجى وتْرُوح ... عالْمَوْجة الزّرْقا
بخمّنْ سفينة نوح ... وبهفّ للملْقَى

يا طـير عـرسك نـوح مظلـوم شـو بتلـقى
هنيّـال للى فى بلادو ظَلّ

* * *

وإن كان جفّ البحر يا بابور ما فى عتـاب ولُـومْ
هَيْـدى دموعى من عيونى بْحُور خُـوضْ فيهـا وعُـوم
قلبى وروحى بالبـلاد ، وهـون جسمى عشطّ البحـر
عالشطّ صـار لو سنين
ناطـر البابـور حتى يْطلّ

وفى قصيدة « سمعت بلادى » :

سمعت بـلادى بتْنـادى عـراس التـل
بـدّى شوف وجـه أولادى مـن البحـر يطلّ
يا مركبْ ديـر الدّفـى صـوب الدّيـار
الدّنيـا ما بْتِسـوْى شحفى من حجـار الدار

* * *

يا خيمـة حارتْنـا وبـن انتى وويْـن صْرنـا نحنـا
بالغربـة وبدمـوع العين بكينـا عالمـاضى ونحْنـا
يقصف عمـرو غراب البينْ هلـنَتَّف جـوانحنـا
خُبـزات الضيعـة سخنينْ طعمتُهـنْ تحـت ضراسى

* * *

وكثيرة هى قصائد الحنين فى ديوان « البرج الأخضر » ، وكلها من هذا اللون الرقيق المؤثر بعبارته الحلوة الناعمة . وليس فى وسعنا أن نمضى فى الاقتباس منها – وهى الديوان كله أو أغلبه – ولكننا نأخذ أشياء من أزجاله الغزلية والوصفية الرقيقة الأخرى .

فمن غزله قصيدة بعنوان « نور ونار » يقول فيها :

لَزْرعْ لِكى هالأرض كِلاّ نجوم

وانصبْ لكى هالشمس خيمى ودار
ونَقْوِشَّا بقمار
واربطها بشُلُوش قلبى الصار
رماد وجمر وهموم
وادْبَحْ لكى هالليل عجْرِيْكى
تالكَوْن كله يصير نور ونار
مثل عينيكى

ويقول فى قصيدة « وينك يا ليلى » :

ملهوف ، عينى بتاكل الطرقاتْ عمْتُبرُمْ عليكى
وروحى ، إن طرتى فوق هالغيماتْ رفّت حواليكى

* * *

ليلى يا ليلى ، زهرة المنتور عشتى عَشَمّ وضَمّ
إنتى عطور ودايبى عَزْهور حلم السما والأرض
إنتى بعمرى دهور
إنتى بعينى نور
إنتى بقلبى دم

وفى ما يلى أبيات من قصيدة بعنوان « عرس الشتى » ، وهى تجمع بين الوصف والحنين :

عرس الشتى محلاه بِلُبنان والليل عَمْيْتصرَصَرَ وبرْدان
وسراج عمبيدْ وبِل وعطشان وبيّ عَنغمة خزقة المزراب
مسرغس ، وحَدّ الموقدى نعسان
والنار عمتاكل حطب
والموقدى بتنبع لهب

وعلْباب تلطم هالرياح العاصفى وعالسطح تفقع هالرعود القاصفى
والليل طايف مثل جنّ وزاحفى وعين السما بالمىّ حاتم طىّ
والسنديانى مثل مارد واقفى

والجبــال ملفلفى بضبــاب
حَيِّكَتْلَيَّاه الريح ثيـــاب

وهذه أبيات من قصيدة خيالية بعنوان « موت القمر » :

الليل بيَّك يا قمــر لابسْ حـداد عافرقتك ، والشمس أمك نايحا(١)
ها شل شعاعا بالسهول وبالوهــاد وما عاد تعرف كيف هيّ رايحا

* * *

يا حسرتى قدّيش ما شال الهموم عنى ، وسهرنى وطوّلنـــا السهــر
ونامت عيونُ الكون عهداب النجوم وغفيتْ شفاف الزهر عشَفاف القمر

* * *

ومن ذلك أيضاً زجلية فى الحنين للشاعر نعمه قازان ، أشارت إليها مجلة (المراحل) فى عددها الصادر فى شهر نيسان ١٩٧٢ ، يقول فيها مخاطباً الشمس :

بينى وبين الشمس كلمه مبهَمى
وما بِتِفْهَما مني الشمس غير تمتمى :
حَدّقِى يا شمس فِى عين الغرِيب
بلكيِ إن حدّقتِ بعينيِ بتفهمى !
يا مفتّحه ومغمّضـــه علينـــا البصر
بينك وبين الأرز فِى شَلحة حجـــر
بسّ تشرِقِى جبيلنـــا عنهم خـــبر
ووين ما غبتِ عليهم سلّمـيِ !

ويقول قازان أيضاً فى زجليّة أخرى ، أشارت إليها (المراحل) كذلك فى العدد المذكور نفسه :

---

(١) هذا البيت الزجلى يذكرّنا بقول الشاعر القروى فى قصيدته (الربيع الأخير) :
« والأرض حارت : أتلق الفجر ضاحكة لأمّها الشمس أم تبكى ابنها القمرا ! »
رغم الشبه القليل بينهما .

من يوم تركت الضيعه وشلحت النير
صرت من برّا كبير ومن جوّا زغـــــير
مشتاق أرجع عالضيعه مشتاق كتير
وارجع من برّا زغير ومن جوّا كبير !

* * *

ونأتى الآن إلى عدد آخر من الزجالين المعروفين فى المهجر ، فنذكر أن أخيلة الزجالين هناك قد انطلقت تغرّد وتبدع حينما زار رئيس جمهورية لبنان الأسبق كميل شمعون البرازيل عام ١٩٥٤ ، فقد رأى المهاجرون هناك فى وجهه وجه لبنانهم الجميل ، فكأنما جاء لبنان نفسه يزورهم فى غربتهم .

وقد أصدرت مجلة « روضة الزجل » حينذاك عدداً خاصًّا جمعت فيه العديد من تحياتهم وأغاريدهم الزجلية . ونذكر ممن شاركوا بأزجالهم فى ذلك العدد صاحب المجلة سليم لطف الله ، وطانيوس الحملاوى ، وزغلول الدّامور ، وغيرهم .

وفى ما يلى أبيات من قصيدة سليم لطف الله :

بهالزيارة يا رئيس لهـــا لحِمى   فَرَّحِتْ منا قلوب حارقْها الظمــا
للبنـــان موطنّا الحلــو جار السما   والمـلايكْ لحــن حبه بينشدو

ومن قصيدة زغلول الدامور نقتطف ما يلى :

يا فرحة الغيّاب وكبـــار الشعوبْ   بنشْر طاللْ من جبـــال معينى
من مشرق الشمس المضَيِ للغروبْ   عاجوانحَك شفنا العلامة مبيّنى
ومش بس نصَبُولك بيارق عالدروب   وزهور من حقل الضيافة الليّنى
بتقدر تفتشْ بالصدور وبالقلوب   وتشوفْ كيف شكل الطريق مزينى

* * *

واليوم هالشعب البدَمّو بيفتديك   لا تلومهنْ لولا عليك تجمعوا
شافوك هجنى وريحة الأرزات فيك   اتركهُنْ يشمو ريحتك تايشبعوا

* * *

ويقول طانيوس الحملاوى :

طلّ الرئيس وطلت الأرزه معــو   يا فرحة المشتاق حتى يشوفهـــا

يا غايبين تهللـوا وتطلعـوا الأيام معكُنْ كمّلت معروفها
وعا صوت لبنان الحقيّق تسمعوا ببلاد فتحت قلبها لضيوفها

هذا بعض ما قيل فى مناسبة واحدة هاجت مشاعر زجالى البرازيل ، ولكنّ المناسبات كثيرة ، والشعر العامى ينطلق فى كل مناسبة ، شخصية كانت أم قومية أم عائلية ، أو ما إلى ذلك مما لا يسعنا أن نتعرض له لكثرته ، ولا سيما قصائد الإخوانيات التى تزخر بها صحف الزجل هناك .

من ذلك مثلاً ما نشرته مجلة (المراحل) البرازيلية فى عددها الصادر فى نيسان ١٩٧٢ من زجل إخوانى بين (عصبة الزجل اللبنانية) والشاعر والزجال فيليب لطف الله بمناسبة عيد الميلاد .

١ – معايدة عصبة الزجل :

عصبة شعـر اللبنـانى عا محبّتـكم رَبيـانِى
ومع طلّـة بسمات العيـد بتتقـدّم بالتهـانِى

* * *

٢ – من ردّ فيليب لطف الله :

عصبـة شعـر اللبنانِى بوطنهـا شَعـلانِى
بتهنّينى بطلّـة عيـد ما أطيبهـا تهـانِى !

* * *

بتمنّى كـلّ الأعيـاد بالخـير عليهـا تنعـاد
الأعـوام وعيـد الميلاد مـن إلهـِي الربّـانِى

* * *

إلى الملـتقى بالأوطان وبشاهدكم يا إخـوان
من بعـد محبّـة لبنـان تبقّى الدنيـا خربانى !

غير أننا نود أن نذكر شيئاً من الشعر العاطفى ، فى الحنين والحب وغيرهما ، ومن ذلك قول الشاعر جورج ناصيف فاضل فى الحنين :

قدّيش أنا مشتاق لبـــــلادى　　أعلا الجبل واهبط الوادى
وانشقْ زهور ، وأورد الغـدران　　وبـــرّد حرارة نار فوآدى
وانشقْ زهور وأورد الغـدرانْ　　وشـــاهد ربيع الأرض بيلبنان
وألطى بنىّ الأرز والريحـانْ　　واختـــــلى ، واتذكر الأيام
وعَالغصنْ أسمـع بلبـل الشادى

ولبولس إلياس الخورى قصيدة بعنوان « يا حب » ، يقول فيها :

يا حبّ الله يقطعكْ من هالدّنى　　وما تضـلّ ليـلى أحبّها وتحبّنى
بركى بيفضى بالنـا ساعة زمانْ　　ونرتاح منـك شى دقيقة بالسنى

* * *

يا حبّ يللى كل طرقاتك سهولْ　　ما فى بدر بك لا طلوع ولا نزول
بعهدك إذا قلبين عقدوا مْحالـفى　　داسوا النظام وحطموا عروش الأصول

وأوردت مجلة (المراحل) فى عدد آب ١٩٧٠ زجلية لسلمى نادر زكريا من نوع (هيهات يا بو الزُلُف) فى الحنين إلى الحبيب ، تقول فيها :

هيهـات يا بـو الزُلُـف　　عيني يا موليّـــا
نغّص حيـاتى البُعُـد　　روّج تعاليّـــــا

* * *

من حين ما شوفتُـك　　غابت عن ربوعـك
عَيني صباح ومسـا　　مـترقّبي رجـوعـك
سُلّمتني للنــوى　　ومـا جِـرْيَت دموعـك
هـالقـدّ قلبك قسيِ　　يا مـلاق حنَيا ؟ !

* * *

يا عـين لا تضجـرى　　مـن مدمعـى الجـارى
ها لنـوح ما بَتركـو　　ليلى ولا نهـــارِى
لو كنت يا بـو الزُلف　　بمصيبـــتى دارى
ما تركت شبح الأسـى　　يتسلّط عليّـا !

* * *

هيهـات يا بو الزُّلُـف عيـنى يا موليّـا
ما غبت عن ناظـرى بعـدك حواليّـا !

* * *

ويبدو من قراءة القصيدة كلّها أن صاحبتها فى لبنان ، تحنّ إلى زوجها المهاجر منذ ثلاثين سنة ، وقد ختمتها بإعلان عزمها إلى اللحاق به .

وهناك لون آخر من الزجل ، أو شعر البادية على الأصحّ ، يقدّمه لنا الشاعر البدوى الأردنى جميل مطر ، فى كتاب له عنوانه (حنين البادية) ظهر فى البرازيل عام ١٩٦٤ ، وفيه العديد من القصائد البدوية ، نذكر فى ما يلى أبياتًا متفرّقة منها ، للأمانة التاريخية والأدبية :

من ذلك قوله فى حفاظه على الصداقة :

كـلّ عمـرى للصـداقـة أنتمـى
ولا يـوم بـعت فيهـا واشتريتْ
ثابت عليهـا وعـن أسـاسهـا مـا بحيـد
ولـلوفـا والصـدق بقـلبى حـويت
بَحِـبّ خير النـاس ومـا بْريـد الأذى
ومعتـصم بالله ومـن فضلـوا اكتفيتْ

* * *

ويقول جميل مطر فى حياته الطويلة فى ديار الهجرة فى البرازيل بعنوان (شكوى) . وهى فى الحنين إلى الوطن :

صـار لِى فِى المهجر فـوق الأربعين
ودوم أطلب من إلهـى وأستعـينْ
حتى يساعدنِى ثـازور الوطـن
وأشاهـد أختى والأقـارب أجمعـينْ
لكنَ بيظهرَ حظّ ما عنـدِى أنـا
حتى أمـور الـدهر دوم معاكسين

وبعد فليست هذه النماذج إلاّ وشلاً من فيض ، وليس القصد من إيرادها سوى تسجيل لون من أدب المهجر لم يقتصر على شعراء العامية وحدهم هناك ، بل شاركهم فيه بعض شعراء الفصحى كذلك . وإنما فعلنا ذلك ههنا أسوة بمن جعلوا للزجل نصيبه من الدرس والعناية فى أدب الأندلس .